الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات

قسم الأدب واللغة

الأستاذة سعاد بولحواش

مادة : النص الشعري المغاربي -محاضرة-

سنة ثالثة ليسانس دراسات أدبية

السداسي السادس

الأفواج:1-2-3

السنة الجامعية:2025/2024

المحاضرة الثامنة: قضايا الشعر المغاربي/إشكالية الهوية والإبداع

المحاضرة الثامنة: قضايا الشعر المغاربي/ إشكالية الهوية والإبداع : الإنسان ، الوطن، المكان واللغة.

-1- مفهوم الهوية :

مفهوم الهويّة من ناحية الدلالة اللغويّة ، هي كلمة مركّبة من ضمير الغائب " هو " مضافا إليه ياء النسبة ، لتدلّ الكلمة على ماهية الشخص أو " الشيء " كما هو في الواقع بخصائصه و مميّزاته التي يعرف بها ، بناء على مقوّمات و خصائص معيّنة تمكّن من معرفة صاحب الهويّة بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه؛ فهي خصوصيّة تاريخيّة ، لغويّة ، دينيّة ، فكريّة، ثقافيّة و قيميّة، تساهم في نحت ملامح هويّة خاصّة تتميّز عن بقيّة الهويّات الأخرى، و التي تختلف عنها بالضرورة و الهويّة لغة الكائن في العالم بها، وعبرها يتواصل مع الأنا كما الغير.

إنّ الإنسان كائن لا ينأى عن رسم حدود ذاته بواسطة منطق الهويّة ، والتي تحدّد رؤيته للعالم وللأشياء، فيكتسب طرق إقامته في العالم، فيعرف ذاته و يعرف غيره، فهي مخزون و موروث جمعيّ تاريخيّ طويل الامتداد في الزمان و المكان ، مملوء بالأمجاد و الإيجابيات و بالتناقضات و التعارضات ، فالهوية على سبيل التلخيص هي جملة الملامح الفكريّة و العقديّة خاصة بجماعة بعينها ، بها تعرف و تتميّز و تقيم في العالم.

ومن التّعريفات الأُخرى لمصطلحِ الهويّة أنّها كلُ شيءٍ مُشترك بين أفراد مَجموعةٍ مُحدّدة، أو شريحة اجتماعيّة تُساهمُ في بناءِ مُحيطٍ عامٍ لدولةٍ ما، ويتمُّ التّعاملُ مع أولئك الأفراد وفقاً للهويّة الخاصّة بهم.

ولقد حرصتْ شعوبُ العالم منذُ بداية البشريّة حتّى هذا اليوم على المُحافظةِ على تميُّزها وتفرُّدها اجتماعيّاً، وقوميّاً، وثقافيّاً، لذلك اهتمتْ بأن يكون لها هويّةٌ تُساعدُ في الإعلاءِ من شأن الأفراد في المُجتمعات، وساهم وجود الهويّة في زيادةِ الوعي بالذّات الثقافيّة والاجتماعيّة، ممّا ساهمَ في تميُّزِ الشّعوب عن بعضهم بعضاً، فالهويّة جزءٌ لا يتجزّأ من نشأة الأفراد منذُ ولادتهم حتّى رحيلهم عن الحياة.

ساهم وجود فكرة الهويّة في التّعبيرِ عن مجموعةٍ من السّمات الخاصّة بشخصيّات الأفراد؛ لأنّ الهويّة تُضيفُ للفرد الخصوصيّة والذاتيّة، كما أنّها تعتبرُ الصّورة التي تعكسُ ثقافته، ولغته، وعقيدته، وحضارته، وتاريخه، وأيضاً تُساهمُ في بناءِ جسورٍ من التّواصل بين كافة الأفراد سواءً داخل مجتمعاتهم، أو مع المُجتمعات المُختلفة عنهم اختلافاً جُزئيّاً مُعتمداً على اختلافِ اللغة، أو الثّقافة، أو الفكر، أو اختلافاً كُليّاً في كافّةِ المجالات دون استثناء.

إن الشعر منبثق من رحم اللغة ، ينشئ عالمه لغويّا لينتهي إلى لغة تخيط عالمه المخصوص ، فلا يحاكي الشعر العالم كما هو موجود في الواقع و لكن يعبّر عن عالم يعيش فيه الشاعر في أعماق شعوره و في أحلامه و في خياله، واللغة في الشعر كعنوان هويّة ليست منبثقة من عدم أو تنحت من فراغ، بل تقف وراءها ذاكرة قرائيّة وقيميّة و معرفيّة و تاريخيّة و اللحظة الشعرية هي لحظة التحام بالوجود، و إنصات لصوته الخفيّ / كما أنّ اللغة ليست أداة للاتصال و التواصل أو لتسمية الأشياء فحسب، بل هي لحظة للكشف عن سمات صوت الأنا (الذاتية و الموضوعية)، فالهويّةُ تعد أنّها مجموعةٌ من المُميّزات التي يمتلّكها الأفراد، وتُساهمُ في جعلهم يُحقّقون صفة التفرّد عن غيرهم، وقد تكون هذه المُميّزات مُشتركة بين جماعةٍ من النّاس سواءً ضمن المجتمع أو الدّولة.

2- مفهوم الهوية في الشعر الجزائري:

إن البحث في مسألة الهوية في الشعر الجزائري طريقة حضارية لدحض كل الإدعاءات الزائفة حول هوية الجزائريين وتراثهم الذي يمثل تراكما لمعارف كثيرة، على امتداد قرون عديدة؛ فالحديث عن الهوية في الشعر الجزائري الحديث يعد أمرا قديما قدم هذا الشعر، فمنذ أن تأسست الدولة الجزائرية على يد الأمير عبد القادر الجزائري ، والشعراء لم يتوقفوا لحظة عن الدعوة إلى الثوابت الوطنية ، وحث الشعوب على رفض كل أساليب المستعمر الذي أراد طمس معالم هذه الهوية العربية الإسلامية .

لقد كانت أطروحة الشعر الجزائري الحديث أطروحة الثورة، فكان لزاما على الشعراء إظهار كلمتهم في مجابهة المستعمر، وبوصف أسس الثورة التحريرية، هو إثبات الهوية الوطنية واسترجاع السيادة،فقد ارتبطت قضايا الشعر الجزائري الحديث ارتباطا وثيقا بالثورة ضد المستعمر الفرنسي الذي قام بطمس الهوية الوطنية، والبعد الديني والحضاري للشعب الجزائري، فأبرز الشعراء موقفهم من المستعمر، وتغنوا بالعروبة والدين الإسلامي، ودافعوا عن الثوابت الوطنية، وسعوا إلى ترسيخها في أذهان الناس، وتحقيق الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية وإثبات الهوية.

أدت هذه الفترة إلى ظهور أسماء كثيرة من الشعراء أمثال : محمد العيد آل خليفة، مفدي زكرياء، محمد السعيد الزاهري، محمد الهادي السنوسي، الطيب العقبي،أحمد سحنون وابن السائح محمد اللّقاني... وغيرهم.

وقد ساير الشعر الجزائري الحديث الثورة التحريرية ، فظهر شعر الثورة؛ حيث عبر الشعراء عن قضيتهم الوطنية في مقاومتهم الاحتلال الفرنسي، فاتسم شعرهم بالنزعة الوطنية التي تمجد الثورة والوطن، ومن بينهم شاعر الثورة مفدي زكرياء الذي تغنى بحب الجزائر، وعبر عن حب الجزائريين للوطن وثورتهم ضد المستعمر :

ويا ثورة حار فيها الزمان وفـــي شعبها الهادئ الثائر

ويا وحدة صهرتها الخطو ب فـــقامت على دمها الفائر

شغلنا الورى

وملئنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

لقد كان الشاعر مفدي زكرياء يدافع عن الثوابت الوطنية وسعى إلى ترسيخها، و يحارب بالكلمة كل ما من شأنه محو آثار هذه الهوية وطمسها؛ فسعى في شعره إلى التغني بالعروبة والاعتزاز بهذا الانتماء الذي كان عن طريق الدين الاسلامي، فكان الاعتزاز بالعربية اعتزازا بالإسلام كذلك.

وعبّر الشاعر صالح خباشة عن الثورة الجزائرية وجعلها عبارة عن صرخة الثوار في وجه المستعمر، والتي تواكبها طلقات المدافع والرشاشات للدفاع عن حمى أرض الوطن وشعبها الطاهر والصامد في وجه المستعمر ، إذ يقول :

اسمعوها صـــــرخة من كل ثائر صـرخة المدفع والرشاش هادر

وحـــدة القطر وشعبي في الجزائر غـاية الثوار في أرض المفاخر

يا بـــــــلادي أنا أقسمت بثأري أنا دون النـصر لا تخمد ناري

فاســـــمعاها صرخة من كل ثائر لـن تنالوا أي شبر في الجزائر

لقد صور الشعراء من خلال شعرهم ظلم وطغيان المستعمر، ومآسي الشعب الجزائري، وعبروا أيضا عن صمود هذا الشعب أمام جرائم المستعمر الفرنسي من خلال ثورتهم ضده، والسعر للدفاع عن استقلال الجزائر، ومجد الشعراء ثورة الجزائر، وعبروا عن احساسهم إزاء نارها الملتهبة التي تحرق العدو، وتنتصر لسيادة الجزائر.

وجاء جيل الاستقلال الأول سائرا على خطى من سبقه، يؤكد على مفردات هوية سُقيت بالدماء "الزاكيات الطاهرات"،وإنْ خالطها تغنٍّ بربيع الاستقلال ونشوة الحرية، والانصراف المحتشم أحيانا لأغراض شعرية أخرى، لكن المؤكد أن روح الجيل المؤسس وألفاظه ومخياله ظل حاضرا في قصائد ذلك الجيل.

كما أن الشّعراء الجزائرين المولودين منذ سنة 1940، والذين بدأوا ينتشرون بعد استقلال الجزائر لم يبدأوا تعبيرًا مشتركًا للتّعبير عما جرى في العالم، والجديد الذي جاء به هؤلاء الشّعراء، هو عدم خضوعهم للحدود المتصلّبة للموضوعية، وإقامة النّفعية، لم يرفض الشّعراء الإحساس بالخوف، أو الإحساس بالشكّ، فقد أدركوا أن التّعبير الشّعري هو كفاح مأساوي لا نهاية له، بين المعرفة العلمية، الفنية، و الأيديولوجية.

و اذا انتقلنا إلى الهوية الدينية، فإن الشعراء الجزائريين قد وظفوا في أشعارهم معاني القرآن الكريم، فقد أضفوا مثلا على الأشعار التي تتناول أحداث الثورة طابعا دينيا، واعتبروا كفاح الشعب الجزائري ضد ظلم الاستعمار جهادا في سبيل الله، ومثال ذلك تشبيه الشاعر مفدي زكرياء الفاتح من شهر نوفمبر تاريخ اندلاع ثورة التحرير بليلة القدر، وجعل قيمة هذا التاريخ من قيمة غزوة بدر أيضا،إذ يقول في الياذة الجزائر :

تـــــــــأذن ربك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر

وقـــال له الشعب أمرك ربي وقـــال له الرب: أمرك أمري

نوفمـــبر غيّرت مجرى الحياة وكـــــنت نوفمبر مطلع فجر

وذكرتـــــــنا في الجزائر بدر فقـمنا نضاهي صحابة بدر

لقد غيّر الفاتح من نوفمبر مسار الحياة في الجزائر، من خلال مواجهة المستعمر الظالم، والاستشهاد في سبيل تحرير الجزائر الذي هو بمثابة استشهاد في سبيل الله.

ويؤكد الشاعر صالح خريف أن ثوار الجزائر ما هم إلا امتداد طبيعي لمجاهدي الأمة الاسلامية، والذين ثاروا من أجل إعلاء كلمة الحق والإسلام وإعادة أمجاده، حيث يقول:

ففي أرض الجزائر خير جند يقيم لغابر الجزائر الإسلام ذكرى

كأنـــــك فيهم (بعلي) ينادي لـقد وعد الله الإله الخلق نصرا

وسيف الله يزكيها فيـــمضي كأسرع من وميض البرق سرى

فليت العين منك رنت إليهم إذ لـــــــــــــتذكرت أحد وبدرا

لقد كان للشعر الجزائري الحديث بعدا وطنيا و دينيا، مستلهما معانيه من القرآن الكريم، أثناء حديث الشعراء عن الجهاد في سبيل تحقيق الاستقلال للجزائر واسترجاع سيادتها وحريتها، وحاول الشعراء في خضم ذلك المحافظة على معالم الهوية الجزائرية الوطنية والدينية.

3- الهوية في الشعر التونسي :

لم يكن الشعر التونسي بمنأى عن التطورات الحضاريّة بل استبطنها وتمثّلها، فخرجت علينا شعرا يحمل بين جنباته ملامح هويّة منفتحة على منجزات الآخر النصيّة والقاطعة مع قديم الشعر، والمتّخذة لنفسها أشكالا تعبيريّة مغايرة للنموذج الشعري العربي التراثي، ومن هذه الزاوية يمكن أن نقسّم المدوّنة الشعريّة التونسيّة على ضوء تفاعلها مع سؤال الهويّة إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة تختزل طرق تفاعل الشعر مع رجّة الحداثة و كيفيّة صونها للهويّة أو القطع معها، وهي كالآتي :

أ-الكتابة التوفيقيّة :يدخل تحت طائلة هذا العنوان عدد كبير من شعراء تونس على غرار آدم فتحي و محمد الخالدي و عادل المعيزي ، حافظ محفوظ و محجوب العيّاري، جميلة الماجري، المولدي فرّوج ، وعبد الله مالك القاسمي، ممّن استفادوا من منجزات الحداثة فتمثّلوها واستوعبوها بطرق مختلفة، وتبدو الكتابة لدى آدم فتحي ومحمّد الخالدي كتابة منخرطة في الحداثة، قاطعة مع الأمس الشعري التليد، و يظهر ذلك جليّا في نقل الشعر من مرحلة الكتابة الخليليّة إلى كتابة تستقدم فنونا أخرى مثل السينما و المسرح و الفنون التشكيليّة و لقد أثّرت فيها ثقافة الصورة أيّما تأثير.

ب-كتابة القطيعة :هي كتابة نسفت كلّ الهويّات لتنتصر لهويّة الذات والشعر، ولهويّة النصّ، فحملت القصيدة معها من النواهي ما يلزم الشعر بأن يتجنّب أيّ تراسل مع الخارج ، و قطعت مع كلّ الإكراهات (الوزن / المعنى) لتدشّن بذلك عصر الكتابة الخالصة كما أطلق عليها الأستاذ المنصف الوهايبي والتي تمثّلها أسماء عديدة مثل الشاعر عبد الفتاح بن حمودة و آمال موسى ، فصار الشعر يتجنّب أن يستعير من الخارج اسما أو مناسبة أو موضوعا. وصارت القصيدة نصّا منغلقا على عالمه الشعريّ، منه ينطلق و إليه يعود في حركة دائريّة، غايتها الإنصات للغة و للذات،إنّه احتفاء بالشعر لذات الشعر ، صفتها الاختزال والتكثيف والإيحاء والوصف .

ج-الكتابة المنتصرة للهويّة : ليست الكتابة ترفا أو تسلية، الكتابة مأساة أو لا تكون على حدّ تعبير الأديب التونسي محمود المسعدي، ومأساة الكتابة الناشئة من رحم الهمّ الذاتي و الموضوعي، فالسياسي والوجودي والقيمي و الحضاري أشياء تنطلق منها الكلمة و إليها تعود، وعلى من نصّب نفسه صاحب فكر و رؤية و موقف و قلم أن يتمثّلها مبنى و معنى، و بالتالي أن يكون مثقّفا عضويا بامتياز يدافع بفكره عن أمته وهويتها و كيانها المهدّد في كل

حين من قبل ريح جهنّمية نسميها تفاؤلا– العولمة، فدور الكتابة ريادي في مجال ترسيخ ثقافة الاختلاف ،وعليه فالكتابة وتد من أوتاد الذاتية لأنها هي الحامية لخصوصية شعب من الشعوب.

4– الهوية في الشعر المغربي:

استقر الشاعر المغربي المعاصر في بداية الألفية الثالثة عند الجانب الذاتي، وواصلَ بحثَه كما بدأه الرواد من قبل، لكن الملاحظَ أن التعبيرَ عن الذات اختلفَ منْ حيثُ الوظيفةُ؛ فالشاعر الآنَ يقاربُها من حيث موقعُها في المجتمع، كما أنه لم يَعُدِ المغتربَ أو المتأرجح بين الانتظار والسقوط، بقدر ما نجح في التخلص من ضغوط الواقع، وكان القليلَ من الشعراء ممن خَضْرَمَ تجربتَه وواصلَ تألقَه.

تعد مرحلة الجيل الجديد من الشعراء طريقُ كثيرٍ من الشعراء، الذين جعلوها ستارا للوصول، على غرار شعراءِ السبيعينيات الذين وجدوا في رواد الشعر العربي مظلاتٍ تواري تجاربَهُم، ليضعوا أقدامَهم على وقْع أقدامِ تجاربَ شعريةٍ لافتة، لذلك فالشعر العربي المعاصر في المغرب في مرحلة الجيل الجديد لم يَخْلُقْ التياراتِ الثقافيةَ ولم يستسغ المدارسَ الشعرية الكبرى؛ بقدر ما سلك سبيلَ شعراءَ مغاربةٍ سبقوهم، فتبنَّوا مواقفَ واتجاهاتٍ سالفةً.

إن البحثَ عن الذات دفعَ الشاعرَ المغربي المعاصر إلى استجلاء الروح الصوفية، تشبعا بما اجتمع فيها من رؤى تعبيريةٍ رصينة، تقترب من ذاته الباحثة عن الهوية، ومنَ الذات المبدعة المناجية الآخرَ بأسمى كلماتِ الهوى، معبرةً عنه بتعابيرَ مجازيةٍ وألفاظٍ، إما هربا من التصريح المباشر أو طمعا في خلق اللغة الشعرية العليا القريبةِ من التوحد والرؤيا الانزياحية.

وحينما نطَّلِع على بعض المجموعات الشعرية المغربية المعاصرة للجيل الجديد، نلمَسُ التوغلَ في الإبداع ، وفي ذلكَ تأويل للذات المبدعة التي يطغى عليها الحسُّ الشاعري، فتحاولُ تَلَمُّسَهُ من خلال التعبير اللغوي بطاقةٍ إبداعية خلاقة، كما أن الشاعر المعاصر يلجأ إلى ذلك للترويج لفكرِه وتجربته الشعرية بناءً على معطى أساسٍ وهو أن البحث عن الهوية الذاتية أرْخَتْ بظلالها على الشعر نفسه، فأصبح الشاعر تواقا إلى حديث رمزي إيحائي عن التجربة الإبداعية

ويتخذ الشاعر المغربي المعاصر انتماءَه في وطن الشعر ملجأً يجعل منه حياة أخرى غير التي يعيشها، وقد يختار أن يكون وطنُ فلسطينَ أمَّةً وملاذا، ووطنُ القصيدِ فضاءً لذيذا، كما قد يجعل شاعرٌ آخرُ القصيدةَ وطنا كليا، فينبُتُ فيهِ ويستجيرُ به أثناء تيههِ ، كما يلجأُ أيضا إلى استحضارِ بعضِ التفاصيلِ اليوميةِ للأمة العربيةِ والإسلاميةِ بتذكرِ أوجاعِ الأمةِ الفلسطينيةِ التي فقدتِ المكان والزمنَ والهويةَ، فيجعلُ القصيدةَ مأوى استثنائيا ووطناً ممكناً.

و قد يتساءلُ الشاعر عن فحوى الكينونة والوجودِ الإنساني في ظل غيابِ أسس الحياة الكريمة، وهو اتجاه انتهجَهُ الشعراءُ منذ القديم، ويَنْزِعُ إلى الحفاظ على الكرامة والهوية والنزعة الإنسانية المفْتَقَدةِ، وهي أسئلة مشروعةٌ يبحثُ من خلالها الشاعرُ عن ذاتٍ مبدعة وسط وطنٍ محكوم بالضياع والدم الممزوج بضحايا المواطن الباحث عن ذاته، لذلك نجد الشاعرَ المغربي يُغْدِق على نفسه من فيض مجازه، ليعبُرَ إلى وطن القصيد ويستعيرَ منه مجاز البلاغة ملجأً للغرباء.

وفي غضون البحث عن الذات الشاعرة، قد يتيهُ الشاعر أيضا وينبجِسُ من بين أضْلُع التيه، مغرِّدا أحاديثَ زهوٍ وأناشيدَ رثاءٍ للذات، وهذا الشاعر نفسه يعلن عِصيانَه على ذات شاعرة تغَرِّد خارجَ السِّرب، فيتوجَّسُ منها خيفَةً، ويعلن عدم انتمائه لذاته أحيانا.

ويمكن القول ، إن البحث عن الهوية إن لم يكن من داخل الذات، فالأَوْلى أن يتعودَ الشاعرُ على ذاته خارج إطار الشعراء العاديين، بمعنى أن المبدعَ يختارُ بين مُرَّيْنِ، إما البحثُ عن ذاتٍ وسطَ ذوات أخرى أو خلقُ ذاتٍ بديلة لذاته.

إن أغلب الشعراء المغاربة المعاصرين يلجؤون إلى تعويض الذات بالوطن/ الشعر، أو الوطن/ الآخر، وهو دليل على البحث عن الملاذ في الوطن/ الآخر، أو الوجود الأصلي الذي يرتضيه كِيانا ووجودا.

و أثناءَ بحثِ الشاعر عن الوطنِ؛ قد يسافرُ بهِ اللفظُ إلى دهاليزِ الرؤى البعيدة، فيحاولُ أن يجِدَ الصيغةَ الملائمة لذاتهِ، فيهرب باللغة إلى أسمى التعابيرِ التي تجعل الشاعرَ يَتُوقُ إلى البحث عن خلاص الذات من وقْع المعيش اليومي المرير، وتقصي الواقع المتخيَّلِ الذي يتيه فيه في عالم تِيه الإبداع الذي يَخْرِقُ به الشاعرُ المعاصر كَبِدَ السماءِ روحا شعريةً جديدة بديلة، ملؤها اللغةُ المستَتِرَةُ وراءَ العشقِ الصوفي

وقد تكون الذاتُ المبدعة في الغالب ذاتا متمردةً على الواقع الإبداعي، لذلك نؤكد أن الشاعر المغربي المعاصر في التجربة الجديدة مبدعٌ باحث عن ذاتٍ مبدعةٍ أكثر من بحثه عن الذات الإنسانية، لذلك فالغوص في تكاليفِ الإبداعِ وصيغِ البحثِ عن وظيفةِ الشعرِ وأهميتهِ، والنبشِ في القضايا العالقة بهِ وغيرها من التنظيراتِ الشعرية كانت من صُلبِ الموضوعات التي أثارتْ اهتمامَهُ، فلبى بها منطقَ ذاته، واستطاع أن يكَوِّنَ لبنةً أولى لكثيرٍ من التوجهات الأدبية العامة، من هنا بحثُ الشاعر المغربي المعاصرُ عن مرفإ جديدٍ يبحَث من خلاله عنِ الآخرِ، وإن تعدَّدَتِ السبُلُ.

وخلاصة القول :

لقد عَمِدَ الشاعر المغربي المعاصر إلى البحث عن المرادف لحياته، فجعل الوطن أولا، والقصيدة ثانيا، والآخر ثالثا،كما أن الذات الإنسانية حاضرة بقوة، ومعوضا عن الهوية الضائعة في المجتمع. رابعا: انتباه البعض إلى الكينونة العربية والإسلامية بحثا عن الهوية المغيبة، وهي في مجملها عوالمُ ذاتية، كتمها الشاعر في حياتهِ ليخَلِّدَ بها شعرَهُ، كما أنه استطاعَ أن يقدمَ صورةً عن واقعٍ معيشٍ يرتضيه أفقا وفضاء حياتيا بديلا للواقع الحياتي المرير، لكن المؤكدَ أنه لم يواصل غربته الوجودية كما انتهى إليها الشعراء الرواد، بقدر ما حاولَ أن يتبنى موقف المدافع عن الحرية الفردية وعن الحياة الكريمة ، لذلك اختار أن يدافع عن الشعر بالشعر ذاته ليبحث عن بديل موضوعي أو معادل موضعي لحياته.